



أحياناً يعجز اللسان عن البوح بالآلامه ويعجز القلم عن كتابة آهاته وشكواه، ويعجز القلب عن ضبط دقاته مهما كانت صحة جسده، ذلك عندما يشتد الهم وتضيق الصدور.. وفي لحظات الهموم والأحزان تدعونا الحكمة أن نتفكر في عدة نقاط: فالتفكير ينبغي أن يكون ابتداء في حكمة الله سبحانه في ابتلاء المؤمنين، وأنه سبحانه جعل ابتلاءهم سنة كونية، وأمرهم بالصبر فيه وجعل ذلك الابلاء ممحقا ومميزا للناس.

فلو تفكربنا في ذلك لهان علينا جزء كبير من الهموم والأحزان عندما نعلم أنها سنة الله سبحانه في خلقه "ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا ولیعلمن الكاذبين"

كذلك التفكر والاعظام بمن ضاقت بهم السبل واستحکمت حلقاتها أمامهم ولم ييأسوا وثبتوا وتحدوا كل الصعاب حتى نجوا ومرت بهم الصعاب ومنهم نتعظ ونعتبر.

يقول الله تعالى "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصدق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون "

ومن الأنبياء نأخذ عبرتنا بالصمود والثبات، ولا نعرف قصصهم لمجرد المعرفة، فهذا إبراهيم عليه السلام الذي لجأ إلى الله تعالى، بينما حلقة الضيق تشد لحظة سقوطه في النار، لكنها فرجت عليه عندما أمر الله تعالى النار أن تكون برداً وسلاماً عليه.

وهذا أليوب عليه السلام الذي وصل ذروة العناء بمرضه، ولكنه عندما لجأ لربه ودعاه فقال (رب إني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين)، فاستجاب له ربه بعد أن وجد منه الأخلاص والصبر والثبات، ففرج عنه ضيقه.

وهذا يونس الذي وجد نفسه في ظلمة بطن الحوت، غير ظلمة البحر وظلمة الليل، ظلمات داخل ظلمات، فلما استحکمت عليه حلقة الأزمة ظلاماً وسوانداً وكرياً ولجاً إلى ربه ودعاه "لإله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" فرج عنه ربه ذلك الضيق ووجد نفسه فجأة على الشاطئ..

هذه من معجزات الله سبحانه الذي يجعل دائمًا الصعب الشديد سهلاً، ويجعل ذروة الأحزان والهموم أفراحاً وفرجاً.

وهذه أم موسى التي ضاقت بها السبل، واستحكت عليها حلقة الكلب، وأحاط بها جند فرعون ليذبحوا ولیدها، فألقت بولدها في اليم، فخرجت من نار وماردة وحيرة إلى نار أشد توهجاً وخوفاً ورعباً عليه، لكن الله تعالى ثبتها ومكّن لها ولصغيرها وفرجت حلقة الضيق بعد أن استحكت عليها.

وهذا يوسف الذي وجد الظلم والاضطهاد من أقرب الأقربين، لكن بصبره وقوته وإيمانه بربه نصره الله تعالى عليهم، وجعله عزيز مصر، وتحقق رؤيته، عندما رأهم ساجدين أمامه بعد غيابات الجب وظلماته وسواده ووحشه وبعد تهم النساء له ثم سجنها وظلمها، وبعدهما استحكت عليه حلقة الكلب وبلغت ذروتها، لكن انقلب الأمور واختلفت الموازين بفضل الله رب العالمين.

فالسبيل هنا إذن قوله تعالى "فَبِهَا هُمْ اقْتُدُوا" ، فعندما تصيب حلقة الشدة علينا أن نتحلى بالصبر وتتخذ ممن قبلنا قدوة وخير قدوتنا رسولنا الحبيب - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الكرام الذين عانوا وشربوا من الأوجاع ما جعلهم لهذه الساعة كrama يضرب بهم الأمثال ومنهم نثّالسي وتعلّم، فلن تنفرج الأزمات التي نشعر باستحکامها إلا بالصبر واليقين بالله تعالى "وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةٍ يَهْدُونَ بِمَا أَمْرَنَا لَمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ" وقد وضح لنا بجلاء ضرورة العودة إلى الله سبحانه في لحظات البلاء تضرعاً ودعاء ورجاء وتبلاً وتقرباً وتوبه واستغفاراً "فَلَوْلَا إِذْ جَاءُهُمْ بِأَسْنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسْتَ قُلُوبَهُمْ.."

مفهوم آخر هام للغاية في لحظات الشدة هو تثبيت معاني الثقة بالله سبحانه، بأنه هو القادر على أن يفجّر الكربات ويقضي الحاجات ويكشف الضرب، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، يعطي من يشاء، ويأخذ من يشاء، يرفع من يشاء ويقهر من يشاء إنه سبحانه بيده الخير وهو على كل شيء قادر، هذه الثقة وحسن الظن بالله تعالى تهون الكربات وتغيير الحالات.. ولعل التذكير بكثرة الدعاء والإلحاح فيه والشعور بالفقر الكامل والضعف بين يدي الله سبحانه أثناء الرجاء ولحظات الدعاء مما يقوى معاني الدعاء وينادي الإخلاص فيه.

إننا وإن كنا نرى الشدائيد في لحظات قد أظلمت وتكلبت وتنادت، بمرض شديد أو ابتلاء ثقيل، فلنعلم أن هناك حلقات مفقودة لا نراها، تلك الحلقات التي يخبيئها لنا القدر، فليس علينا إلا إحسان الظن بالله تعالى، فربما تكون هذه حلقات خير ورشد، فرح وفرج، نور وضياء لما هو قادم، لكن أولى لنا ألا نيأس "فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرين"

المسلم

المصادر: